كلمة العدد

مرض نفسى ولّا مس

بقلم

د. محمود أبو العزائم

رئيس التحرير

من منا لم يمر بظروف وأمور نفسية وحياتية صعبة فى مرحلة من مراحل حياته عانى فيها الكثير من الآلام والإحباط والشعور بالعجز والفشل، لدرجة أنه شعر أنها أصعب مرحلة من مراحل حياته وأحيانا يتمنى فيها الإنسان أن تكون النهاية حتى يتخلص من هذا الإحساس الصعب والمؤلم.

ولكن من نعم الله علينا أن يبدل الله حياتنا من حال إلى حال وتمر المحن والصعوبات ويتلوها الأفراح والطمأنينة والاستقرار وهكذا هى سنة الحياة أو كما قال الشاعر ما بين غمضة عين وانتباهتها ** يغيّر الله من حال إلى حال» ولكن البعض منا يستعجل الفرج وزوال الغم والمرض وكأن الأمر بيده وليس بأقدار خالقه ؛ وقد تكون تلك الصعوبات بسبب بعض المشاكل المالية أو الصحية أو النفسية التى لا يدركها الإنسان ويفكر البعض أنها غضب من الله تعالى، وقد يعزوها البعض إلى الغيبيات من المس والسحر والحسد وينسى أن كل أقدار الله لها أسباب وقد تكون من بين تلك الأسباب الأمراض النفسية التى ينكرها البعض .**

وقد يأتى المريض وأهله إلى العيادة النفسية للسؤال هل تلك الأعراض والآلام سببها المرض النفسى أم أنها بسبب السحر والمس، وهل الحالة تستدعى العرض على المشايخ والروحانيين للتخلص من تلك المعاناة . وهنا سوف نناقش موضوع السحر واللبس والعمل وعلاقته بالأمراض النفسية.

وللإجابة على هذا السؤال يجب أولا أن نتعرف على أسباب حدوث الأمراض النفسية أولا... ولدراسة هذه الأسباب يجب أن نتعرف على المخ البشرى – المعجزة الإلهية - حيث يتكون المخ البشري من آلاف الملايين من الخلايا، وهناك مراكز في المخ لكافة الوظائف النفسية والبيولوجية للإنسان ،فهناك مركز للحركة ومركز للتنفس وكذلك هناك مركز للذاكرة والسلوك والمزاج والوجدان.. ويرتبط المخ بالحبل الشوكى الذى يقع داخل العمود الفقرى وهو يحتوى على عدد ضخم من الخلايا العصبية، وبذلك يتمكن من نقل كل أنواع المعلومات من وإلى المخ. وتتصل الخلايا العصبية بعضها ببعض بواسطة تشابكات عصبية ،وهذه التشابكات أو المسافات الرقيقة بالرغم من أنها تفصل ما بين الخلايا لكنها في الواقع تربط بينها كيميائيا .. إن الرسائل تنتقل بين خلية وأخرى بواسطة مواد تسمى الناقلات العصبية ، وزيادة أو نقص الناقلات العصبية في المخ «مثل السيروتونين ، دوبامين ، أدرينالين .. إلخ» يؤدى إلى اضطراب الوظائف النفسية للإنسان، فقد وُجد مثلا أن اختلاف نسبة السيروتونين يؤدى إلى اضطرابات نفسية مثل الاكتئاب . ومن هنا جاءت فكرة كيفية ضبط تركيز الناقلات العصبية وإيجاد توازن بينهما مستخدما العقاقير التى تؤثر على الناقلات العصبية وإعادتها إلى وضعها السليم. إذا فالمرض النفسى يحدث بسبب اختلال فى نسبة الناقلات العصبية فى الجهاز العصبى للإنسان وذلك نتيجة عدة عوامل منها: تأثير الوراثة والبيئة والتربية وعوامل عديدة أخرى البحث جار عنها ، والمرض النفسى مثله فى ذلك مثل الأمراض العضوية الأخرى له أساس عضوى ولا يحدث بسبب الجن.

وقد يقول البعض: لقد رأينا بأعيننا وسمعنا بآذاننا «الشيخ» وهو يضرب الـ«جني» ويكلّمه !! ....

أقول: هناك ما يُعرف في طب النفس بظاهرة الإيحاء؛ وهي قدرة توجد عند كل فرد منا، ولكن مقدارها يختلف من شخص إلى شخص، يتمكن صاحبها من فرض ما يريد على الموحى إليه. لذا نجد أن المعالجين الشعبيين وأهل الدجل والشعوذة هم من أكثر الناس قدرة على الإيحاء، ويعينهم على ذلك الضرب المبرح وتسليط صوت المسجل العالي جداً على أُذُني المريض المسكين، فيضطر المريض إلى تقمّص شخصية مختلفة أو التكلم بكلام غريب محاولاً الهروب من الضغط الرهيب الذي يُمارس ضده. من ناحية أخرى – وهي الأغلب – قد يكون المريض مصاباً بحالة تُعرف في الأوساط الطبية بـ«التحول الهستيري»، يتحول فيها المريض إلى شخص مختلف تماماً يقوم بأعمال هستيرية وغير راشدة، فتجده يتكلم بلهجة مغايرة وأسلوب مختلف ويقول إنه كافر!! أو أنه امرأة ويريد الزواج من نفسه!!

وما لا يعلمه كثير من الناس أن الطب النفسي فرع من فروع الطب تماماً مثل أمراض القلب وأمراض الجهاز الهضمي..والأمراض النفسية أمراض لها أسبابها وأعراضها وأساليب علاجها المختلفة.

والمؤلم أن مفهوم الطب النفسي لايزال مشوشاً عند الغالبية من المثقفين، ويكاد يكون معدوماً عند بقية أفراد المجتمع، والمظلوم في هذه الحالة هو المريض، والمنتصر هو المرض الذي يستشري ويتفاقم، وزيارة الطبيب النفسي تأتي متأخرة لأسباب متعددة:

السبب الأول: عدم المعرفة أساساً بأن هناك شيئاً اسمه الطب النفسي ... فالاكتئاب معناه زعل ... والوسواس القهري معناه سيطرة الشيطان ... والهستيريا دلع ... والقلق النفسي ضعف إيمان ...والعلاج في نظرهم هو تغيير الجو والفرفشة ومحاولة نسيان المشاكل والهموم، وتقوية الإرادة ...

السبب الثاني: هو أننا نخجل أحياناً من الظهور في العيادة النفسية ... نخجل أن أحد أفراد الأسرة مريض نفسياً، ولعل السبب يرجع إلى أن المرض النفسي مازال معناه الجنون ... مازال مرتبطاً بالعباسية والخانكة .

والغريب في الأمر، أن الزيارة الأولى للعلاج تتم في حجرات الدجالين والمشعوذين وعلماء الأرواح، في حفلات الزار.

وللأسف فإن الكثير من الناس يتجاهل المرض النفسي حتى يتفاقم ويصعب أحياناً معالجته ... فقد يؤدي المرض النفسي إذا أهمل إلى انتحار المريض، أو إقدامه على إيذاء غيره من الناس، ليس الإيذاء محدودا بعمل معين بل إن إيذاءه للناس قد يكون عن طريق استخدامه لأساليب عديدة من المنطق في الكلام، الكذب، السرقة، وقد تصل للقتل ... باختصار إيذاؤه للغير يختفي تحت قناع المرض ولا يمكن اكتشاف المريض النفسي في معظم الأحيان .

وقد يختفي المرض النفسي عن طريق اتخاذه صورة مرض عضوي. وهذه بعض الأمراض التي يسببها المرض النفسي: السكر، الضغط، أمراض القلب والشرايين، الربو، القولون العصبي، قرحة المعدة، آلام المفاصل، اضطرابات الدورة الشهرية، وكثير من الأمراض الجلدية على سبيل المثال سقوط الشعر والإكزيما ... والعديد من الأمراض التي يجمع الأطباء على أنه لا يمكن شفاؤها إلا من خلال مداواة النفس.

وأخيرا فإن المرض النفسى له علاج إما بالعقاقير الطبية الدوائية أو بالجلسات النفسية أو بالاثنين معا إذا استدعت الحالة. والتداوى أمر من الرسول صلى الله عليه وسلم ولعل هذا المعنى مما يومئ إليه حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما أنزل الله داء إلا قد أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله".

ولكن الطبيب قد يصيب الدواء المناسب، ويهتدي إليه فينجح في معالجة الداء بإذن الله، وقد يخطئ الطبيب في معرفة الدواء، أو في تشخيص المرض فيفشل في العلاج. والحديث صريح في أنه ليس هناك أمراض مستعصية لا دواء لها، فكل مرض له أدوية تؤثر فيه، وتقضي عليه، ولكن الأطباء ربما لم يكتشفوها بعد وقد قال – صلى الله عليه وسلم - كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: "إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء.."